اليَقِيْنُ وَالمَعرِفَةُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ: نَحو أُفُقٍ مَعرِفِيٍّ بَدِيْلٍ عَن الفَوْضَى الغَربِيَّةِ

■ السيد هشام حسن مرتضى[1]

ملخّص

يمثِّل اليقين في التصوُّر الإسـلامي ذروة البناء المعرفي؛ حيث تقوم المعرفة على التكامل بين الوحي والعقل والحسّ، ما يضمن توازنًا بين الحقيقة، والهداية، والعمل. في حـين يعاني الفكر الغربي الحديث من أزمة معرفية ناتجة عن الانتقال من اليقين إلى الشكّ، ثمَّ النسبية، وصولاً إلى ما بعد الحداثة التي تفكِّك مفهوم الحقيقة، وتلغي المعايير الموضوعية، وتسـبِّب فوضى معرفية واسعة في الوعي الإنساني المعاصر. ليسـت المعرفةُ معلومات فقط، بل هي طريـق إلى الحقيقة، واليقين، والهداية. كما أنَّ الإسلام يربط العلم بالعمل والمسؤولية، ويجعل الوحي والعقل والحسّ مصادر متكاملة للمعرفة، ويقدِّم نموذجًا يوازن بين الثبات والتعدّد، وبين اليقين والمرونة في الفهم الإنساني. ويقترح بديلاً معرفيًّا يقوم على استعادة مفهوم الحقيقة الموضوعية، وإعادة الثقة بالعقل، والعلم، والوحي، مع ضبط حدود كلٍّ منها، بما يمنع الانحراف نحو النسبية المطلقة أو الدوغمائية (Dogmatism)، ويؤسِّس رؤيةً معرفيةً متوازنةً.

الكلمات المفتاحية: اليقين، المعرفة في الإسلام، النسبية المعرفية، ما بعد الحداثة، الوحي والعقل والحسّ، أزمة المعرفة الغربية.

١ - باحث لبناني في المجالات الدينية والتاريخية والفلسـفية، وأسـتاذ الدراسـات العليا في الحوزة العلمية.

Certainty, Knowledge in the Islamic Worldview: Towards Epistemological Horizon Alternative to Western Chaos

■ Mr. Hisham Hassan Mortada[1]

Abstract

The certainty occupies the highest level of the epistemological framework in the Islamic worldview, where knowledge is based on the integration of revelation, reason, and sensory perception. This integrated approach ensures a balance between truth, guidance, and action. In contrast, modern Western thought has experienced an epistemological crisis resulting from its transition from certainty to skepticism and relativism, culminating in postmodernism, which has deconstructed the concept of truth and rejected objective standards, thereby contributing to epistemic disorder in contemporary human thought.

From the Islamic perspective, knowledge is not merely the accumulation of information; it is a path to truth, certainty, and guidance. Accordingly, Islam establishes a close relationship between knowledge, action, and moral responsibility, while treating revelation, reason, and sensory experience as complementary sources of knowledge. This framework offers a balanced model that reconciles permanence with diversity, and certainty with the flexibility of human understanding. In this way, Islam presents an alternative epistemological paradigm that seeks to restore the concept of objective truth, reaffirm confidence in reason, science, and revelation, and define the proper limits of each, thereby avoiding both absolute relativism and Dogmatism and establishing a balanced approach to knowledge.

Keywords:

Certainty, knowledge in Islam, Epistemological Relativism, Postmodernism, Revelation, Reason and Senses, Crisis of Western knowledge.

1 -A Lebanese researcher in the religious, historical and philosophical fields, and professor of postgraduate studies at the religious seminary [Hawza].

مقدّمة

تنطلق إشـكالية المعرفة من حقيقة ملازمة للوجود الإنساني، تتمثَّل في شعور الإنسان الدائم بوجود فجوة بينه وبين الفهم الكامل للعالم المحيط به. ومنذ البدايات الأولى للتفكير الفلسفي، شكّل سؤال المعرفة محورًا أساسًا للبحث الإنساني، فارتبطت معرفة الإنسان بذاته بمعرفته للعالم، وأصبحت القدرة على الفهم والتفسير شرطًا ضروريًّا للحياة الإنسانية الواعية. كما أنَّ المعرفة لا تمثِّل حاجة فردية فحسب، بل تشكّل أساس نهضة المجتمعات وتقدّمها؛ لأنَّ المجتمعات القادرة على إنتاج المعرفة، وتطوير أدواتها ومناهجهـا، تمتلك القدرة على مواجهة التحدِّيات وصناعة مستقبلها، بخلاف المجتمعات التي تكتفي باستهلاك المعارف الجاهزة وتكرارها.

وتقوم العملية المعرفية على ثلاثة مفاهيم مترابطة، هي المعرفة، والحقيقة، واليقين. فالمعرفة تمثِّل عملية مسـتمرّة من الإدراك والفهم والتفسير، تسـعى لتجاوز ظاهر الأشياء، للوصول إلى معانيهـا وعللها. أمَّا الحقيقـة، فهي الغاية التي تتَّجـه إليها المعرفة، وتمثِّـل التطابق بين الفكر والواقـع. لكنَّ محدودية القدرات البشرية تجعل امتلاك الحقيقة المطلقة أمرًا متعذّرًا، ما يفرض التواضع المعرفي والاعتراف بأنَّ الإنسان لا يدرك من الحقيقة إلا بقدر ما تسمح به أدواته العقلية والحسِّـية. ومع ذلك، فإنَّ هذا القصور لا يلغي إمكانية الوصول إلى حقائق جزئية أو موضوعية تقوم على الأدلَّة والبراهين. أمَّا اليقين، فهو حالة نفسية من الثقة والجزم بصحَّة الاعتقاد، ولا يعني بالضرورة مطابقة الاعتقاد للواقع؛ إذ قد يكون الإنسـان واثقًا من أمر يتبيَّن لاحقًا بطلانه، كما قد يشكّ في أمر يثبت صدقه في النهاية.

وفي العصر الحديث، برزت أزمة معرفية عميقة على الرغم من التقدّم العلمي والتقني الهائل، وتوافر المعلومات بصورة غير مسبوقة. فقد أدَّت التحوُّلات الفكرية والثقافية والإعلامية إلى انتشار النسبية المعرفية التي انطلقت، في بداياتها، من الاعتراف بتعدّد زوايا النظر، واختلاف السياقات الثقافية والتاريخية للإنسان، لكنَّها تحوَّلت في كثير من صورها إلى نزعة تنكر وجود الحقيقة الموضوعية أصلاً، وتعتبر أنَّ كلّ الآراء والسرديات متساوية في القيمة؛ حيث لم يعد هناك معيار واضح للتمييز بين العلم والخرافة، أو بين المعرفة والجهل.

أدَّى هذا المسار إلى التشكيك في الحقيقة الموضوعية، وتحويل النقاشات العامة إلى صراعات بين روايات متنافسة، لكلٍّ منها جمهورها ومصادرها الخاصّة. ولم تعد الوقائع المشتركة هي المرجع الحاسم في الحكم على الأمور، بل أصبحت المشاعر، والانتماءات، والميول الأيديولوجية، عناصر مؤثِّرة في تحديد ما يُعدّ حقيقة. كما امتدَّت هذه الأزمة إلى المجال العلمي؛ حيث تراجعت الثقة بالخبرة المتخصِّصة، وأصبحت الآراء غير المؤهَّلة تحظى، أحيانًا، بالمكانة نفسها التي تحظى بها الدراسات العلمية الرصينة، ما أسهم في إضعاف المنهج العلمي، وإرباك الوعي العام.

وفي مواجهة هذه الأزمة، يقوم التصوُّر الإسلامي للمعرفة على رؤية متوازنة، تجمع بين مصادر متعدِّدة للمعرفة، فلا يحصرها في الحسّ أو العقل وحدهما، بل يجعل الوحي، والعقل، والحسّ عناصر متكاملة ضمن منظومة واحدة. ويمنح الوحي إطارًا كلِّيًا للمعرفة يحدِّد الغايات الكبرى، بينما يتولىَّ العقل مَهمَّة الفهم والاستدلال، فيما تقدِّم الحواسّ المعطيات التجريبية المتعلِّقة بالعالم الخارجي. ويؤسِّس هذا التكامل لتوازن يحفظ للمعرفة العلمية مكانتها، من دون أن يحصر الحقيقة فيما تدركه التجربة الحسِّية وحدها.

كما يرتكز هذا التصوُّر على الاعتراف بحدود المعرفة البشرية، مقابل الإحاطة المطلقة للعلم الإلهي، الأمر الذي يرسِّخ التواضع المعرفي من دون الوقوع في الشك المطلق أو العدمية. فالحقيقة موجودة، وقابلة للبحث والاكتشاف، لكنَّ الإنسان يدركها بصورة جزئية ومتدرِّجة بحسب إمكاناته المحدودة. ومن ثَمّ يجمع هذا النموذج بين الإقرار بتعدُّد الاجتهادات البشرية واختلاف وجهات النظر من جهة، والإيمان بوجود حقيقة موضوعية ثابتة من جهة أخرى.

ورغم مـا يتيحه هذا النموذج من إمكانـات لمعالجة الأزمة المعرفية المعـاصرة، فإنَّه يواجه تحدِّيات داخلية، تتمثَّل في الجمود الفكري، وتحويل بعض الاجتهادات التاريخية إلى مُسلَّمات نهائية، كما يواجه تحدِّيات خارجية مرتبطة بالهيمنة الثقافية الغربية، والصور النمطية السائدة. ومع ذلك، تبقى إمكانيـة بناء رؤية معرفية متوازنة قائمة من خلال إعادة الاعتبار للتكامل بين الوحي والعقل والحسّ، وإحياء البحث الجادّ عن الحقيقة بوصفها غاية إنسـانية كبرى، بما يسـهم في تجاوز حالة الاضطراب المعرفي، واستعادة الثقة بإمكان الوصول إلى المعرفة الهادفة، والمعنى، واليقين.

أوَّلًا: الأزمة المعرفية في الفكر الغربي الحديث والمعاصر

١ - من يقين العصور الكلاسيكية إلى شكّ الحداثة -رحلة انهيار أسس المعرفة في الفكر الغربي-:

يمثِّـل تاريخ الفكر الغـربي رحلة فريدة ومثيرة، قلّما نجد لها نظـيراً في الحضارات الأخرى. إنَّها رحلة انتقلت فيها المعرفة من يقين العصور الكلاسـيكية، الذي يمزج بين العقل الفلسـفي واللاهوت المسيحي، إلى شكّ الحداثة الذي لا يكاد يستقرّ على أساس، ثمَّ إلى ما بعد الحداثة التي نقضت كل الأُسـس. ولفهم الأزمة المعرفية التي يعيشـها العالم المعـاصر، لا بدَّ من تتبع جذورهـا في هـذه الرحلـة الفكرية الطويلـة، والوقوف عنـد المحطات الكبرى التي شـكَّلت منعطفاتها الحاسمة.

أ- العصر الكلاسيكي، يقين يزاوج بين الفلسفة واللاهوت

في العصور الكلاسيكية، قام الفكر الغربي على أساس متين من التكامل بين الفلسفة اليونانية واللاهوت المسـيحي. كانت الفلسـفة اليونانية، خاصة في صورتها الأفلاطونية والأرسطية، قد أرسـت قواعد المعرفة على أسـس عقلية محكمة؛ حيث تبنَّت وجـود عالم معقول ثابت خلف عالم المحسوسات المتغير، وإمكانية وصول العقل البشري إلى الحقائق الكلية واليقينية، ووجود تطابق بين نظام العقل ونظام الكون.

ولما ظهرت المسيحية، لم يكن عليها إلا أن تستوعب هذا الإطار الفلسفي وتملأه بمضمونها

اللاهوتي. فصار الإله المسيحي هو المبدأ الأوَّل الذي كان يتحدَّث عنه (أرسطو)، وصارت «المُثُل» الأفلاطونية هي الأفكار في عقل الله. في هذا المزيج الفلسفي-اللاهوتي، وجد الإنسان الغربي يقينه المعرفي، من خلال إيمانه بوجود الحقيقة، وأنَّ العقل قادر على إدراكها، والوحي الإلهي يهدي إلى ما قد يعجز عنه العقل، دون أن يكون بينهما تعارض جوهري.

هذا اليقين الكلاسيكي، رغم تماسكه الظاهري، كان يحمل في داخله بذور انهياره. فقد كان استقراره مرهونًا بسلطة الكنيسة وهيمنتها على الفكر، وبقبول المقدّمات اللاهوتية التي ينبني عليها. وحينما بدأت هذه السلطة بالتآكل، وبدأ العقل يطالب بحقوقه المستقلّة، كانت رحلة الشكّ قد بدأت.

ب- صدمة الحداثة، حين أصبح العقل الفردي محور المعرفة

جاء عصر النهضة ثمّ عصر الإصلاح الديني ليزلزلا أسس اليقين الكلاسيكي. فمن جهة، فتحت النهضة الأفق على عودة حيوية للفكر اليوناني، ولكن بصورة مستقلّة عن التأطير الكَنَسي. ومن جهة أخرى، فكَّك الإصلاح الديني الذي قاده (مارتن لوثر - Martin Luther) احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدَّس، ودعا إلى عودة الفرد إلى النص مباشرة، ما فتح الباب واسعًا لتعدّد التأويلات وانهيار المرجعية الواحدة.

ولكنَّ الضربة الكبرى لليقين الكلاسيكي جاءت مع (رينيه ديكارت - René Descartes) (١٥٩٦-١٦٥٠) الذي يُعدّ الأب المؤسِّس للعقلانية الحديثة، ومنعطفًا حاسمًا في تاريخ المعرفة الغربية.

ما بدأه (ديكارت) من تأسيس للمعرفة على الذات، قاد تلامذته إلى نتائج لم يكن هو نفسه ليقبلها؛ فالمذهب العقلي الذي أسَّسه تحوَّل إلى مذهب تجريبي على يد (جون لوك - John Locke) و(ديفيد هيوم - David Hume)، ثمّ إلى مذهب نقدي على يد (إيمانويل كانط - Immanuel Kant)، وكل خطوة كانت تزيد من حدَّة الشكّ، وتقلِّص مساحة اليقين.

وهكذا، نرى أنَّ الأزمة المعرفية المعاصرة ليست طارئة ولا عابرة في تاريخ الفكر الغربي، بل هي نتيجة منطقية لمسار فكري بدأ منذ عدّة قرون. إنَّ الانتقال من يقين العصور الكلاسيكية إلى شكّ الحداثة، لم يكن مجرّد تغيرٌّ في الإجابات، بل كان انقلابًا في الأساس الذي تقوم عليه المعرفة كلّها.

في هذا السياق التاريخي، نستطيع أن نفهم لماذا يعاني الفكر الغربي المعاصر من أزمة عميقة، ولماذا أصبحت النسبية والتشكيك سمتين أساستين للعقل ما بعد الحداثي. إنَّها أزمة أُسس قبل أن تكون أزمة نتائج، وحفريَّاتها تمتدّ إلى اللحظة التأسيسية للحداثة نفسها، حين قرَّر الإنسان الغربي أن يبني معرفته على ذاته وحده، تاركًا السماء التي كانت تظلّله.

٢- صعود التجريبية والوضعية

بعد أن فتح (ديكارت) باب الشك المنهجي، وجعل الذات الفردية أساس المعرفة، انطلق الفكر الغربي في مسارين متوازيين ومتصارعين؛ مسار العقلانية التي رأت في العقل وأفكاره الفطرية مصدر اليقين، ومسار التجريبية التي ردَّت المعرفة كلّها إلى التجربة الحسِّية. وسرعان ما اكتسح المسار الثاني الساحة الفكرية، متحولاً من مذهب فلسفي إلى روح عصر كامل، ليبلغ ذروته في الفلسفة الوضعية التي أرست حدودًا صارمة للمعرفة البشرية، وأقصت من مجالها كلّ ما لا يخضع للحسّ والتجربة.

أ-الوضعية، تتويج المسار التجريبي

في القرن التاسع عشر، جاء (أوغست كونت - Auguste Comte) (١٧٩٨-١٨٥٧) ليتوِّج المسار التجريبي بفلسفة شاملة، أطلق عليها اسم "الوضعية". لم تعد المسألة عنده مجرَّد رأي فلسفي، بل أصبحت قانونًا تاريخيًّا حتميًّا. لقد صاغ (كونت) "قانون الأحوال الثلاثة" الشهير الذي يرى أن البشرية تمر بثلاث مراحل فكرية:

- المرحلة اللاهوتية: حيث يفسِّر الإنسان الظواهر باللّجوء إلى قوى خارقة وآلهة.
- المرحلة الميتافيزيقية: حيث يستبدل الإنسان الآلهة بمبادئ عقلية مجرّدة وقوى طبيعية غامضة.
- المرحلة الوضعية: حيث يتخلَّى الإنسان عن البحث في الأسباب الأولى والغايات القصوى، ويكتفي بوصف القوانين التي تحكم الظواهر انطلاقًا من الملاحظة والتجربة.

إنَّ حصر المعرفة بالمحسوس والتجربة لم يكن مجرّد تطوّر أكاديمي، بل كان زلزالاً هزَّ أُسس تصوُّر الإنسان لنفسه وللعالم من حوله.

ب-تفريغ العالم من المعنى:

في التصوّر الكلاسيكي والديني، كان العالم حاملاً للمعنى، ومشحونًا بالغائية. الطبيعة كتاب مفتوح يقرأ فيه الإنسان آيات الله وحكمته. أمَّا في التصوُّر الوضعي، فالعالم مجرَّد «حقائق» صمَّاء، وظواهر مادية تحكمها قوانين رياضية لا تحمل أي معنى أو غاية. لقد تحوَّل الكون من «خلق» إلى «وجود مادّي محض»، وصار السؤال عن «لماذا» مستبدَلاً بالسؤال عن «كيف».

ج-ضرورة تجاوز الاختزال

إنَّ ما يظهر من هذا الاستعراض هو أن التجريبية والوضعية، رغم ما حقَّقتاه من تقدُّم في العلوم الطبيعية، قد مارستا عنفًا معرفيًّا على العقل البشري حين حصرتا المعرفة في مجال المحسوس وحده. لقد حاولتا إسكات الأسئلة الكبرى بدل الإجابة عنها، وأقصتا من المعرفة ما لا يمكن للبشر أن يستغنوا عن التفكير فيه.

٣ - ما بعد الحداثة وانهيار المرجعيات -حين تحوَّلت الحقيقة إلى وجهة نظر-:

في رحلة الفكر الغربي التي بدأت بيقين العصور الكلاسيكية، مرورًا بشكّ (ديكارت) المنهجي، وصولاً إلى حصر المعرفة بالمحسوس في التجريبية والوضعية، كانت المحطَّة الأخيرة هي الأكثر جذرية وتدميرًا. إنَّها محطَّة «ما بعد الحداثة» التي لم تكتفِ بالشكّ في قدرتنا على بلوغ الحقيقة، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير: إلى تفكيك مفهوم الحقيقة ذاته، وإعلان أنَّه لم تكن هناك حقيقة موضوعية أصلاً. إنَّها لحظة انهيار المرجعيات الكبرى التي تركت الإنسان المعاصر في فراغ معرفي ووجودي غير مسبوق.

أ-النسبية المعرفية، لا معايير للحقيقة

إذا كانت التجريبية قد حصرت المعرفة بالمحسوس، فإنَّ ما بعد الحداثة وسَّعت دائرة «المعرفة» لتشمل كلّ شيء، ولكن بثمن باهظ، وهو إلغاء أي معيار للتمييز بين المعرفة والجهل، وبين العلم والخرافة. فإذا كانت الحقيقة بناءً اجتماعيًّا، وإذا كان ما نعرفه مشروطًا بثقافتنا ولغتنا وموقعنا الاجتماعي، فليس هناك أي مبرِّر لتفضيل معرفة على أخرى، أو اعتبار ثقافة «أصدق» من غيرها.

هذه النسبية المعرفية، في صورتها المتطرِّفة، تساوي بين العلم والتنجيم، وبين الطبّ والتداوي

بالتمائم، وبين التاريخ والأسـطورة؛ لا لأنَّها تثـق في هذه المعارف كلّها، بل لأنَّها لا تثق في أي منها، ولا ترى أساسًا موضوعيًّا للمفاضلة بينها. إنَّها ترفض فكرة «الأساس» ذاتها. كل ما نملكه هو «وجهات نظر»، و«تأويلات»، و«سرديَّات»، لا يمكن أن تدّعي أي منها امتلاك الحقيقة.

ب - إفلاس الفلسفة أم فرصة للتجديد؟

إنَّ وصول الفكر الغربي إلى هذه الحالة من التفكُّك والنسبية ليس نهاية التاريخ، بل قد يكون بدايـة لمراجعة عميقة. لقد حاولت الحداثة بناء المعرفة على العقل البشري وحده، متجاوزة أي مصدر للمعرفة خارج الذات الإنسانية. وما بعد الحداثة كانت النتيجة المنطقية لهذا المسار، حين اكتشـف العقل أنَّه لا يستطيع أن يقدِّم يقينًا، وحين أدرك أنَّ الذات الإنسانية دون مرجع متعالٍ لا يمكنها إلا أن تتيه في متاهات النسبية.

٤- مظاهر الفوضى المعرفية المعاصرة -حين يصبح الوهم سلعة-:

بعد أن استعرضنا الجذور الفلسـفية العميقة للأزمة المعرفية في الفكر الغربي، بدءًا من شكّ (ديـكارت)، ومرورًا بحصر المعرفـة في التجريبي والوضعي، وانتهاءً بتفكيـك ما بعد الحداثة لمفهوم الحقيقة ذاته، نصل الآن إلى الثمار المُرَّة التي يجنيها الإنسان المعاصر من هذه المسيرة الفكريـة الطويلة. إنَّها الفوضى المعرفية التي لم تعـد مجرَّد أزمة في أروقة الجامعات ومجالس الفلاسـفة، بل أصبحت واقعًا يوميًّا يعيشـه كلّ فرد في هذا العصر، ويواجهه في كلّ مرة يحاول فيها أن يفهم العالم من حوله.

ففي العـصر الرقمي، لم يعد إنتاج المعلومـات حكرًا على المؤسَّسـات الإعلامية الكبرى، أو الهيئـات العلمية المتخصصة. أيّ شـخص يمتلك هاتفًا ذكيًّا يمكنـه أن ينتج «خبرًا» وينشره ليصل إلى ملايين الناس في لحظات. هذا التحرُّر من بوَّابات النشر التقليدية، بقدر ما يحمل من إمكانيَّات إيجابية للديمقراطية الإعلامية، فقد فتح أيضًا أبوابًا هائلة للتضليل.

ولم يعد الرأي العام يُصنع بشـكل طبيعي، من خـلال تفاعل الناس مع المعلومات المتاحة، بل أصبح «يُصنع» بشكل ممنهَج. صناعة الرأي العام هي مجال متكامل، توظَّف فيه المليارات، ويشتغل فيه خبراء في علم النفس الاجتماعي، وتحليل البيانات الضخمة، والتسويق السياسي.

هــذه الصناعة للرأي العام لا تحتاج حتــى إلى إقناع الجميع. في عصر الاســتقطاب، يكفي أن تؤمــن كل جماعة بسرديَّتها الخاصَّــة، وأن تنغلق في فقَّاعة معلوماتهــا، حتى يصبح الحوار مستحيلاً، وتتفكَّك المجتمعات إلى جزر متصارعة، لا تشترك في أي أرضية معرفية مشتركة.

ثانيًا: مفهوم المعرفة في التصوُّر الإسلامي

١- مركزية العلم في الإسلام -حين يكون طلب المعرفة عبادة-:

حيــث لاحظنا ما يعانيــه العالم المعاصر، والأزمــة المعرفية الخانقة التي تتجاذبها النســبية، والتشــكيك، وفقدان المعايير، يبرز التســاؤل عن النماذج المعرفية البديلــة التي يمكن أن تقدِّم مخرجًا من هذا المأزق. وفي قلب هذا البحث، يقف التصوُّر الإســلامي للمعرفة بوصفه واحدًا من أكثر النماذج ثراءً، وتماســكًا، ومؤسَّسًا على قاعدة صلبة، تجعل من العلم والمعرفة قيمتين محوريتين في حياة الفرد والمجتمع. إنَّ مركزية العلم في الإســلام ليست مجرَّد توصية خُلُقية أو حثّ عابر، بل هي بنية عميقة تتغلغل في النص المؤسِّــس، وفي التجربة التاريخية، وفي الوعي الحضاري للأُمة.

أ-اقرأ، الكلمة الأولى في الوحي والمنهج المؤسِّس للمعرفة

حين نزل جبريل عليه السلام على النبي محمد ﷺ في غار حراء، حاملاً الكلمات الأولى من الوحي الإلهي، لم تكن هذه الكلمات عن الصلاة، ولا عن الصيام، ولا عن العقيدة المجرَّدة، بل كانت أمرًا معرفيًّا بامتياز: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ**﴾ [العلق: ١].

إنَّ بدء الوحي بكلمة «اقرأ» ليس مصادفة بل تأسيسًــا لمنهــج كامل في المعرفة. إنَّه الإعلان الإلهــي أنَّ الطريق إلى الله يبدأ بقِيم مركزيــة؛ بالقراءة، والعلم، والمعرفــة. وأنَّ هذه الأُمة التي ستحمل رسالة الإسلام إلى العالم هي أُمة «اقرأ»؛ أي أُمَّة العلم والمعرفة.

ب-العلم في السُّنَّة: فرض، وعبادة، وطريق إلى الجَنَّة

إذا كان القرآن قد جعل العلم قيمة مركزية، فإنَّ سُنَّة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام قد ترجمت هذه المركزيــة إلى توجيهات عملية وتربوية، تغلغلت في صميم الحياة الإســلامية. ويكفي أن نتأمَّل حديث رسول الله ﷺ الذي نقله (الشيخ الكليني): «طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إنَّ

الله يحب بغاة العلم»[١].

هذا الحديث يضع العلم في مرتبة الفرائض والواجبات الدينية. إنَّ طلب العلم ليس ترفًا فكريًا، ولا اختيارًا شخصيًّا، بل هو تكليف شرعي ومسؤولية دينية. ولفظة «كلّ مسلم» تشمل الرجل والمرأة، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، فليس أحد من المسلمين بمنأى عن هذه الفريضة.

ولم تقف النصوص عند حدود الحثّ على العلم، بل وضعته فوق العبادات البدنية من حيث القيمة والأجر، حين قال النبي ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[٢]. هذه المقارنة بين العالم والعابد تكشف عن أَولوية المعرفة على الشعائر المجردة؛ لأنَّ العالم ينفع الناس ويهديهم، بينما العابد ينحصر نفعه في ذاته غالبًا.

وفي التصور الإسلامي، قيمة العلم لا تقاس فقط بنتائجه المعرفية، بل أيضًا بنية طالبه. الحديث النبوي الشهير: «إنما الأعمال بالنيات»[٣] ينطبق على العلم كما ينطبق على أي عمل آخر. فطالب العلم الذي يبتغي به وجه الله يختلف عن طالب العلم الذي يبتغي به شهرة أو مالاً أو سلطة.

ج-العلم مسؤولية، أمانة المعرفة وتبعاتها

في مقابل التكريم العظيم للعلم والعلماء، يضع الإسلام على عاتقهم مسؤولية جسيمة. فالعلم أمانة، وحامل الأمانة مسؤول عنها أمام الله وأمام الناس. ولذا، كان أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة «عالم لم ينفعه الله بعلمه»[٤]، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل. والعلم يهتف بالعمل، فإنْ أجابه وإلا ارتحل عنه»[٥]، فالذي يمتلك المعرفة ولا يعمل بها، أو يخفيها، أو يستخدمها في الشرّ والفساد، حسابه مضاعف، وعقابه شديد.

هذا الربط بين العلم والمسؤولية يقدِّم نموذجًا معرفيًّا وخُلُقيًّا، لا ينفصل فيه البحث عن الحقيقة عن القيم والمبادئ. إنَّه نموذج يرفض فكرة «العلم للعلم» التي قد تبرِّر أشنع الجرائم باسم المعرفة، كما حدث في التجارب النازية على البشر، أو في تدمير البيئة بدعوى التقدُّم التقني.

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص٣٠، كتاب فضل العلم، ح١.
٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٢، ص١٨، ح٤٦.
٣ - محمد بن الحسن الحُرّ العاملي: وسائل الشيعة، ج١، ص٤٨، باب وجوب النية في العبادات، ح١٠.
٤ - محمد بن فتال النيشابوري: روضة الواعظين، ص١٠.
٥ - محمد بن الحسين: نهج البلاغة، ج٤، ص٨٥، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

لا بدّ للعلم في الإسلام أن يفضي إلى عمل صالح، وإلى إعمار الأرض، وإلى خدمة الإنسان. إنَّه علم يهدي إلى الحقّ، وينفع الخلق، ويدفع الظلم، ويقيم العدل. وهذه هي المسؤولية الكبرى التي يحملها العالم المسلم.

٢- مفهـوم المعرفة في الرؤية الإسـلامية -من المعلومات المجـرَّدة إلى الحقيقة الهادية-:

بعد أن رسَّـخ الإسلام مركزية العلم وجعله قيمة عُليا وعبادة ومسؤولية، يبرز سؤال جوهري: ما هـي المعرفة في التصوُّر الإسـلامي؟ وهل هي مجرَّد تراكم للمعلومـات والبيانات، كما في التصوُّرات الوضعية الحديثة، أم أنَّها شيء يرتبط بالحقيقة والهداية والعمل؟

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تكشف عن فارق جوهري بين النموذج المعرفي الإسلامي والنماذج المعرفية التي أنتجت الأزمة المعاصرة. فالمعرفة في الرؤية الإسلامية ليست غاية بذاتها، بل هي وسيلة للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وطريق للهداية، ودافع للعمل الصالح.

أ-ارتباط العلم بالحقيقة، المعرفة بين الظن واليقين

من أهم ما يميِّز مفهوم المعرفة في الرؤية الإسـلامية هو ارتباطهـا الوثيق بالحقيقة. فالمعرفة الحقّة هي التي تطابق الواقع، وتصل إلى الحقيقة الموضوعية. ولهذا، نجد أنَّ القرآن الكريم يذمّ الظـنَّ والتخمين حين يحلاّن محلّ العلم والحقيقة: ﴿**وَمَا يَتَّبِـعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس: ٣٦].

ولكـن هذا لا يعني أنَّ كلَّ ما يعتقده الإنسـان هـو الحقّ، أو أنَّ الوصول إلى الحقيقة سـهل وميسور، بل على العكس، فإنَّ الرؤية الإسلامية تفرِّق بين درجات المعرفة ومراتبها؛ فهناك العلم اليقيني الذي لا شـكَّ فيه، وهناك غلبة الظنّ التي تكفي في مجالات معيَّنة من الفقه والاجتهاد، وهناك الشكّ والوَهْم اللذان لا يغنيان من الحقّ شيئًا. إنَّ هذا التمييز المنهجي بين مراتب المعرفة يوفِّر خارطة طريق للباحث عن الحقيقة، تحميه من الضياع بين اليقين المطلق والشكّ المطلق.

ب-ارتباط المعرفة بالهداية -المعرفة نور يضيء الطريق-:

إذا كانت الفلسـفات الغربية قد بحثت عن المعرفة لذاتها، أو من أجل السيطرة على الطبيعة،

فإنَّ الرؤية الإسلامية تربط المعرفة بالهداية. ليست المعرفة مجرَّد وسيلة للقوَّة، بل هي نور يضيء طريق الإنسان إلى الله، وإلى الحق، وإلى الخير.

يعبرِّ القرآن الكريم عن هذه العلاقة بين العلم والهداية في مواضع كثيرة؛ قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾ [الرعد: ١٩]، يجعل الله -تعالى- من العلم نورًا ومن الجهل عمى.

وقولـه: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]، يجعل الله -تعالى- الهداية خروجًا من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

ج-ارتباط المعرفة بالعمل، ثمرة العلم المطلوبة

الارتباط الثالث الجوهري في مفهوم المعرفة الإسلامية هو ارتباطها بالعمل. فالعلم في الإسلام ليس مجرَّد نشـاط نظري مجرد، بل هو محفِّز للعمل ومؤسِّـس له. تتكرَّر هذه الفكرة في القرآن والسُّـنَّة بشـكل لافت؛ فالإيمان مقرون بالعمل الصالح في عشرات الآيات، والعلماء هم الذين ينتفعون بعلمهم فيعملون به.

يـذمّ القـرآن العلماء الذين لا يعملون بعلمهم في قولـه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِـمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢-٣]. ويصف الإمام الصادق عليه السلام العلم الذي لا يتّبعه عمل بما رواه (الشيخ الكليني) في «الكافي»: «العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم»[1].

٣- مصادر المعرفة في الإسلام -تكامل الوحي والعقل والحسّ-:

إذا كان مفهوم المعرفة في الرؤية الإسلامية يتَّسم بالشمول والعمق، متجاوزًا مجرَّد المعلومات إلى الحقيقة، والهداية، والعمل، فإنَّ هذا المفهوم يستند إلى نظرية متكاملة في مصادر المعرفة. إنَّهـا نظرية لا تحصر المعرفة في مصدر واحد، كما فعلت المذاهب الفلسـفية الغربية، بل تفتح أمام الإنسـان نوافذ متعدِّدة للمعرفة، وتقيم بينها تكاملاً يضمن الاتّسـاع، والعمق، والتوازن. لا

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص ٤٤، كتاب فضل العلم، ح٢.

يتصارع الوحي، والعقل، والحسّ، في التصوّر الإسلامي، بل تتعاون وتتكامل، لترسم للإنسان خريطة متكاملة للوجود والحقيقة.

أ-الوحي، المصدر المؤسِّس للحقائق الكبرى

يقف الوحي -القرآن الكريم والسُّنَّة المعصومة- في قلب مصادر المعرفة الإسلامية بوصفه مصدرًا مؤسِّسًا، يمدّ الإنسان بالحقائق الكبرى التي لا يمكن للعقل والحسّ أن يصلا إليها باستقلال عنه. إنَّ الوحي ليس مجرَّد «مصدر» للمعرفة إلى جانب المصادر الأخرى، بل هو الإطار المرجعي الذي يوجِّه عمل المصادر الأخرى، ويحدِّد مجالها.

يقرِّر القرآن الكريم هذه الحقيقة بوضوح: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**﴾ [آل عمران: ٧٣]، ويصف نفسه بأنَّه ﴿**هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥]. إنَّه يقدِّم للإنسان هداية في المسائل الكبرى التي تتعلَّق باللّه، والكون، والنفس والمصير، وهي مسائل لا يمكن للعلم التجريبي أن يقدِّم إجابة عنها.

ب-العقل، أداة الفهم والاستدلال والتكامل مع الوحي

إذا كان الوحي يقدِّم الحقائق الكبرى، فإنَّ العقل هو الأداة التي يفهم بها الإنسان هذه الحقائق، ويستدلّ بها، ويوظِّفها في فهم العالم والحياة. لم يلغِ الإسلام العقل، كما يزعم بعض المغرضين، بل كرَّمه وجعله مناط التكليف وشرطًا للعبادة والمسؤولية.

وقد توجَّه القرآن إلى العقل البشري بخطاب مباشر، محفِّزًا إيَّاه على التفكُّر والتدبُّر والنظر. والتعبيرات القرآنية في هذا المجال كثيرة ومتنوِّعة: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾، ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا**﴾، ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾. إنَّ هذه الدعوات القرآنية المتكرِّرة للعقل لا يمكن أن تصدر عن دين يهمِّش العقل أو يلغيه!

ولا يكتفي القرآن بالدعوة إلى استعمال العقل، بل يذمّ الذين يعطِّلون عقولهم، ويتَّبعون الظنّ والتقليد الأعمى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢]، ويصف الكافرين بأنَّهم ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

ج-الحس والتجربة، الاعتراف بالمعرفة التجريبية وحدودها

لم يهمل الإسلام المعرفة الحسِّية والتجريبية كما فعلت بعض الفلسفات المثالية التي ازدرت

عالم المحسوسات. بل على العكس، أعطى الإسلام للحواس والتجربة مكانة مهمة في بناء المعرفة الإنسانية، وجعل من التأمُّل في العالم المحسوس طريقًا إلى الإيمان بالله.

يخاطب القرآن الإنسان من خلال حواسّه، ويلفت نظره إلى ما يراه ويسمعه ويلمسه. يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨]. هذه الآية تجعل الحواس والعقل معًا أدوات للمعرفة، وتجعلها من نِعم الله التي تستوجب الشكر.

ويذم القرآن الذين يعطِّلون حواسّهم عن إدراك الحق: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهؤلاء يمتلكون أدوات المعرفة، ولكنَّهم لا يستعملونها في ما ينفعهم.

ولم يجعل الإسلام من المادَّة شيئًا نجسًا يهرب منه المُتديِّن، بل جعلها مُسخَّرة للإنسان، قال -تعالى-: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣]. هذا التسخير يعني أنَّ التعامل مع العالم المحسوس، واكتشاف قوانينه، والاستفادة من خيراته، هو جزء من مَهمَّة الإنسان في الأرض.

ولذلك، رفض الإسلام النزعات الزهدية المتطرِّفة التي تحقِّر الجسد وتعذِّب الروح، وأَولى الجسد بصفته عنصرًا ماديًّا عناية فائقة، قال -تعالى-: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..**﴾ [القصص: ٧٧].

د-التكامل بين مصادر المعرفة -نحو نموذج معرفي متوازن-:

إنَّ عبقرية التصوُّر الإسلامي للمعرفة تتجلَّى في هذا التكامل بين المصادر الثلاثة؛ فالوحي يقدِّم الإطار الكلي، والحقائق الغَيبية، والغايات العُليا، والعقل يفهم هذه الحقائق، وينظِّمها، ويستدلّ عليها، ويوظِّفها في الاجتهاد والاستنباط، وأمَّا الحسّ والتجربة فيمدَّان العقل بالبيانات عن العالم المحسوس، ويكشفان عن سُنن الله في الكون.

هذا التكامل يحمي من آفات النماذج المعرفية الأحادية. فهو يحمي من العقلانية المجرَّدة التي تظنّ أنَّ العقل وحده قادر على بلوغ كل الحقيقة، ويحمي من التجريبية الضيِّقة التي تحصر المعرفة في المحسوس وتلغي كلّ ما عداه، ويحمي من النصّية الحرفية التي تعطِّل العقل وتهمل شهادة الكون.

ثالثًا: اليقين في الرؤية الإسلامية

١- اليقين في الرؤية الإسلامية، معنى اليقين وأعلى درجات الإدراك

بعد أن استعرضنا مفهوم المعرفة في الإسلام ومصادرها المتكاملة، نصل إلى ذروة البناء المعرفي الإسلامي: اليقين. إنَّه الحالة التي يطمئنّ فيها القلب، وتستقرّ فيها النفس، ويزول عنها القلق والتذبذب. وحيث يعاني العالم من الشكّ الممنهَج، ومن ضياع اليقينيات، ومن تحوُّل الحقيقة إلى مجرَّد وجهات نظر، تبرز أهمية العودة إلى مفهوم اليقين في الرؤية الإسلامية، ليس نظريًا، بل حالة وجودية تمنح الإنسان الثبات في خضم الفوضى المعرفية.

ولفهم اليقين، لا بد من تمييزه عن المراتب الأخرى من الإدراك التي تقع دونه. فالذهن البشري لا يصل إلى اليقين دفعة واحدة، بل يمرّ في طريقه إلى المعرفة بمراتب متعدِّدة، تتفاوت في قوَّتها وثباتها. ويفرِّق القرآن الكريم بين هذه المراتب تفريقًا دقيقًا، ويجعل منها معيارًا للتمييز بين المعرفة الحقَّة وما دونها.

أ-الظنّ احتمال مع ترجيح

إنَّ أدنى مراتب الإدراك التي يعتدّ بها هي الظنّ، والظنّ هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض.

قد يكون الظنّ قويًّا يقترب من اليقين (وهو ما يُسمَّى بالظن الغالب)، وقد يكون ضعيفًا يقترب من الشكّ (وهو الظنّ الضعيف أو الوَهْم).

يعترف الإسلام بالظنّ في مجالاته المناسبة، خصوصًا في الأحكام الفقهية العملية التي تُبنى على غلبة الظنّ، وفي التعاملات الإنسانية اليومية؛ حيث لا يمكن الوصول إلى اليقين في كلّ شيء. لكنَّه يرفض رفضًا قاطعًا أن يكون الظنّ أساسًا للعقائد والمسلَّمات الإيمانية.

يذم القرآن الكريم الاعتماد على الظنّ في المسائل الكبرى، ويجعله من صفات الضالين: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ**﴾ [النجم: ٢٣]. ويقول: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس: ٣٦].

ب-الشكّ تردُّد بين الاحتمالات

أمَّا الشكّ، فهو حالة من التردُّد والتذبذب بين احتمالين أو أكثر، دون أن يرجِّح الذهن أحدها على

الآخر. إنَّه حالة من اللا يقين، يتساوى فيها طرفا الاحتمال، ويقف فيها الذهن حائرًا لا يدري أين يتَّجه.

وقد عرَّف علماء الإسلام الشـك بأنَّه «استواء الطرفين». وهو يختلف عن «الشكّ المنهجي» الذي استخدمه بعض الفلاسفة بوصفه خطوة مؤقَّتة للوصول إلى اليقين.

لا يرفض الإسـلام السـؤال والبحث والتحقُّق، بل يأمـر به: ﴿**قُلْ هَاتُـوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١]. ولكنَّه يرفض الشـكّ الذي يتحوَّل إلى حالة دائمة ومنهج حياة؛ ذلك أنَّ الشكّ المطلق يمنع المعرفة من الأساس، ويجعل الحقيقة مستحيلة المنال.

ج-اليقين الجزم الثابت المطابق للواقع

في أعلى مراتب الإدراك يقف اليقين. إنَّه الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع عن دليل. ليس اليقين مجرَّد شـعور نفسي بالقوَّة والثبات، بل هو إدراك موضوعي يصل فيه الذهن إلى الحقيقة كما هي، ويجزم بها جزمًا لا يتزعزع، ويستند في ذلك إلى دليل وبرهان.

إذن، يجمع اليقين ثلاثة عناصر:

- الجزم والثبات، فلا تردُّد ولا تذبذب.
- المطابقة للواقع، فلا وَهْم ولا خطأ.
- الاستناد إلى الدليل، فلا تقليد أعمى ولا ادِّعاء بلا برهان.

بهذه العناصر الثلاثة، يتميَّز اليقين عن الظنّ الذي يفتقد الجزم، وعن الشكّ الذي يفتقد الجزم والترجيح معًا، وعن الجهل الذي يفتقد المطابقة للواقع، وعن التقليد الذي يفتقد الدليل.

٢- مراتب اليقين في القرآن

يذكر القرآن ثلاث مراتب لليقين، تمثّل درجات متصاعدة في عمق الإدراك وقوَّته.

- علم اليقين، وهو المعرفة الجازمة المستندة إلى الدليل والبرهان. كما في قوله -تعالى-: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٥]. هذا هو أساس اليقين، المعرفة المدعومة بالدليل القاطع.
- عين اليقين، وهو ما يرتقي فيه الإدراك من مجرَّد العلم النظري إلى المشاهدة والمعاينة. كما في قوله -تعالى- في وصف الجحيم: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٧].

فعين اليقين أرسخ وأقوى من علم اليقين؛ لأنَّ المشاهدة أبلغ في الإقناع من الخبر.

- حـقّ اليقين، وهي أعلى المراتب؛ حيث يصل الإدراك إلى درجة الاتحاد بالموقَن به، والتخلُّـق بمقتضاه؛ حيث يصبح اليقين حالـة وجودية لا مجرَّد فكرة في الذهن. وقد ورد هذا في قوله -تعالى- عن القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الحاقة: ٥١].

هذه المراتب الثلاث ترسـم سُلَّمًا معرفيًّا وروحيًّا يصعده المؤمن في رحلته إلى الله. من علم اليقين الذي هو المعرفة البرهانية، وإلى عين اليقين الذي هو المشاهدة القلبية، وإلى حقّ اليقين الذي هو التحقُّق الوجودي بالحقيقة.

أ-اليقين في مواجهة الشكّ المعاصر

في ضوء هذه الرؤية القرآنية لليقين، نسـتطيع أن نفهم لماذا يعاني الإنسـان المعاصر من أزمة وجودية عميقة. إن الثقافة المعاصرة، التي تشبعت بالنسبوية والتشكيك، قد قطعت الطريق على اليقين. لقد جعلت من الشك فضيلة، ومن اليقين جريمة معرفية! وأصبح «المثقف» هو من يشك في كل شيء، بينما «المؤمن» بيقينه هو شخص بسيط ساذج!

لكن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بلا يقين. إنَّه محتاج إلى أرض صلبة يقف عليها، وإلى حقائق يطمئنّ إليها، وإلى معانٍ يضحِّي من أجلها.

إنَّ ما يقدِّمه التصوُّر الإسـلامي هو طريق لاسـتعادة اليقين دون إلغاء للعقل، ودون إنكار لتعقيد الواقع. إنَّه يقين ينمو ويزداد مع المعرفة والتأمُّل، لا يقين يخاف من الأسئلة، وينكمش أمام التحدِّيات.

ب- طرق اليقين في الرؤية الإسلامية:

يبدأ طريق اليقين والاطمئنان في الرؤية الإسلامية من خلال:

- الوحي الذي يقدِّم الحقائق اليقينية الثابتة.
- العقل الذي يتأمَّل في هذه الحقائق، ويدرك أدلَّتها وبراهينها.
- القلب الذي يتذوَّق هذه الحقائق، ويجد فيها طمأنينته وسكينته.
- التجربة الحياتية التي تؤكِّد هذه الحقائق يومًا بعد يوم.

بهذا التكامل، يصبح اليقين ليس مجرَّد قناعة فكرية، بل حالة وجودية شاملة، يشترك فيها العقل، والقلب، والروح، والجوارح. إنَّه اليقين الذي كان يعيشـه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام،

حيث يقول: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا»[1]. إنَّها درجة من اليقين أصبحت فيها حقائق الإيمان أقوى في النفوس من حقائق المشاهدة الحسِّية!

ولعلَّ هذا هو السرّ في أنَّ الإسلام يربط أعلى درجات الإدراك - وهو اليقين - بالبرهان العقلي والبحث المعرفي. إنَّه يريد من المؤمن أن يكون صاحب يقين مؤسَّس على العلم، لا صاحب إيمان موروث قد تطيح به أوَّل شبهة، أو تقليد أعمى لا يصمد أمام أوَّل تحدٍّ.

٤- أثر اليقين في بناء الإنسان -الثبات، والغاية، والتحرُّر من القلق-:

إذا كان اليقين هو أعلى درجات الإدراك في الرؤية الإسلامية، وثمرة لتكامل العقل والإيمان والمعرفة، فما هو أثره في بناء الإنسان؟ هذا السؤال يكتسب أهمية خاصّة في عصرنا الحاضر الذي يموج بالقلق والاضطراب، ويعاني فيه الإنسان من التفكُّك النفسي، والتيه الوجودي، وفقدان البوصلة. إنَّ اليقين ليس مجرَّد مفهوم معرفي مجرَّد، بل هو قوَّة نفسية وروحية هائلة، تبني الإنسان من الداخل، وتمنحه الثبات في وجه العواصف، والوضوح في وسط الضباب، والتحرُّر من القلق الوجودي الذي يفتك بإنسان هذا العصر.

اليقين يمنح الإنسان نقطة ارتكاز ثابتة لا تتزعزع. إنَّه يشبه المرساة التي تثبت السفينة في الميناء وسط العواصف الهوجاء. عندما يمتلك الإنسان يقينًا راسخًا باللّه، وبمعنى وجوده، وبالقِيم التي يؤمن بها، فإنَّه لا تهزّه الرياح، ولا تطيح به الأمواج.

يعبِّر القرآن عن هذا المعنى تعبيراً بديعًا: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٢٤].

أ-اليقين في مواجهة الفتن والابتلاءات:

عندما تهبّ رياح الفتن، وعندما تشتدّ الابتلاءات، يقف الناس على حافّة الانهيار النفسي. ولكن المؤمن صاحب اليقين يختلف حاله؛ إنَّه يرى الابتلاء بعين اليقين، فيفهم حكمته، ويدرك أنَّه اختبار مؤقَّت، فيثبت ولا ينهار.

---

١ - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣١٧.

وقد تجسّد هذا المعنى في أولئك المؤمنين الذين أُلقي بهم في الأخدود المشتعل، فثبتوا على عقيدتهم رغم هول العذاب. وهذا ما نراه في ثبات النبي ﷺ في مواجهة أذى قريش، وهذا ما وجدناه مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وهذا ما نعيشه اليوم في صراعنا مع قوى الاستكبار والهيمنة، رغم ما نعانيه من القتل، والتهجير، والتدمير. إنَّه الثبات النابع من اليقين الذي لا تزعزعه التهديدات ولا المغريات.

ب-وضوح الغاية -بوصلة لا تضلّ الطريق-:

في الرؤية الإسلامية، اليقين بالله واليوم الآخر يمنح الإنسان وضوحًا كاملاً في الغاية. إنَّه يعرف أنه لم يُخلق عبثًا: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٥]. إنَّه يعرف غاية وجوده: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

بما تقدّم وغيره ندرك أنَّ اليقين ليس مجرَّد قناعة عقلية، بل هو أساس لبناء إنسان متكامل. إنَّه يمنح الثبات في زمن التقلُّبات، والغاية في زمن التيه، والتحرُّر من القلق في زمن الاضطراب.

رابعًا: نحو أفق معرفي بديل للأزمة المعاصرة.

١- نحو أفق معرفي بديل -الحاجة إلى إعادة تأسيس مفهوم الحقيقة-:

بعد تشخيص الأزمة المعرفية المعاصرة، واستعراض معالم النموذج المعرفي الإسلامي وأسسه وخصائصه، نصل الآن إلى لحظة المواجهة الحاسمة. لحظة نطرح فيها السؤال العملي: كيف نتجاوز هذه الأزمة؟ وما هو الأفق البديل الذي يمكن أن يخرج بالإنسانية من متاهات النسبية والتشكيك وفقدان المعنى؟

إنَّ نقطة البداية في أي مشروع للخروج من الأزمة المعرفية هي إعادة تأسيس مفهوم الحقيقة؛ ذلك أنَّ الأزمة، في جوهرها، هي أزمة حقيقة قبل أن تكون أزمة منهج أو معلومات. وحين انهارت الحقيقة بوصفها قيمة عُليا، ومبدأ منظِّمًا للبحث والمعرفة، انهار معها كلّ شيء: الثقة بالعلم، وإمكانية الحوار، وأُسس الأخلاق، ومعنى الوجود ذاته. لهذا، فإنَّ أي أفق بديل لا يمكن أن يقوم إلا على إعادة الاعتبار لمفهوم الحقيقة، وتجاوز النسبية المطلقة، واستعادة الثقة بإمكان المعرفة والوصول إلى اليقين.

أ-تجاوز النسبية المطلقة -استعادة الإيمان بالحقيقة الواحدة-:

لقد رأينا كيف أنَّ النسبية المعرفية، في صورتها المتطرِّفة، قد قادت إلى إنكار إمكانية وجود حقيقة موضوعية، وإلى مساواة كلّ الادعاءات المعرفية، وإلى تحويل المعرفة إلى مجرَّد سرديات ووجهات نظر متنافسة، لا معيار للمفاضلة بينها. هذه النسبية المطلقة هي قلب الأزمة المعاصرة، وتجاوزها هو المدخل الضروري لأي إصلاح معرفي.

ب-تشخيص النسبية، لماذا هي مشكلة؟

ليست مشكلة النسبية أنَّها تعترف بتنوّع الثقافات ووجهات النظر -فهذا أمر واقعي لا ينكره أحد-، بل لأنَّها تخلط بين «تنوّع المنظورات» و«نسبية الحقيقة». فالحقيقة قد يراها الناس من زوايا مختلفة، وقد يعبِّرون عنها بلغات متباينة، لكن هذا لا يعني أنَّ الحقيقة نفسها متعدِّدة أو غير موجودة.

ج- مشكلة النسبية المطلقة:

مشكلة النسبية المطلقة في أنَّها:

- تجعل الحوار مستحيلاً: إذا كان لكلٍّ حقيقته، فعلامَ يتحاور الناس؟
- تنزع الثقة عن العلم: إذا كانت النظرية العلمية مجرَّد «سردية» مثل الأسطورة، فلماذا نثق بالعلم؟
- تقوِّض أُسس الأخلاق: إذا لم تكن هناك حقيقة موضوعية عن الخير والشرّ، فبأيّ معيار نحكم على الظلم والعدوان؟
- تفرِّغ الحياة من المعنى: إذا لم تكن هناك حقيقة كبرى يعيش الإنسان من أجلها، فما قيمة الحياة؟

د-تجاوز النسبية دون الوقوع في الدوغمائية (Dogmatism):

لا يعني الخروج من النسبية -بحال من الأحوال- العودة إلى الدوغمائية المغلقة التي تدَّعي امتلاك الحقيقة امتلاكًا تامًّا، وترفض أي حوار أو مراجعة. هذا خلط خطير بين «الحقيقة» و«امتلاك الحقيقة».

يقدِّم النموذج الإسلامي موقفًا وسطًا؛ الحقيقة موجودة، وهي في أصلها واحدة؛ لأنَّ مصدرها

واحد. لكن فهمنا لهذه الحقيقة نسبي، ومحدود، وقابل للتطوّر. نحن نسعى إلى الحقيقة، ونقترب منها، لكنَّنا لا نمتلكها امتلاكًا كاملاً.

هذا الموقف يجمع بين:

- الإيمان بوجود حقيقة موضوعية (ضدّ النسبية العدمية).
- التواضع المعرفي، والاعتراف بقصور الفهم البشري (ضدّ الدوغمائية المغلقة).

ه-استعادة الثقة بإمكان المعرفة، وضد التشكيك الممنهج

إذا كان تجاوز النسبية هو الخطوة الأولى، فإنَّ استعادة الثقة بإمكان المعرفة هي الخطوة الثانية. فلقد أصيبت المعرفة، في العصر الحديث، بنوع من الشكّ المُمنهَج الذي بدأ مع (ديكارت) في سعيه إلى اليقين، لكنَّه انتهى -على يد خلفائه- إلى إنكار إمكانية اليقين أصلاً. لقد تحوَّل الشكّ من «مَنهج» مؤقَّت للوصول إلى الحقيقة، إلى «حالة» دائمة تجعل الحقيقة مستحيلة.

و-الثقة بالعقل دون تأليهه

إنَّ استعادة الثقة بإمكان المعرفة تعني استعادة الثقة بالعقل البشري بوصفه وسيلةً قادرةً على إدراك الحقيقــة. فالعقل، وإن لم يكن معصومًا من الخطأ أو محيطًا بكلّ شيء، يمتلك ضمن مجاله القدرة على بلوغ معارف يقينية، والاهتداء إلى حقائق ثابتة. أمَّا التشكيك في هذه القدرة أو إنكارها، فلا يفضي إلا إلى نفي الخصِّيصة الرئيسة التي تميّز الإنسان، وتمكّنه من الفهم والإدراك عن سائر المخلوقات.

يخاطب القرآن الإنســان باعتباره كائنًا عاقلاً وقادرًا على الفهم، والتمييز، والاســتدلال. وهو يدعوه باستمرار إلى التفكُّر، والتعقُّل، والنظر. هذه الدعوة لا معنى لها إذا كان العقل عاجزًا عن الوصول إلى أي حقيقة.

لكن اســتعادة الثقة بالعقل لا تعني تأليهه أو إطلاقه من كل قيد. فالعقل -في النموذج الإســلامي- يعمل في إطار الوحي الذي يهديه، وضمن حدود قدراته التي لا تتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

ز-استعادة الثقة بالوحي بصفته مصدرًا للمعرفة

في ســياق اســتعادة الثقة بإمكان المعرفة، تبرز أهمية اســتعادة الثقة بالوحي بوصفه مصدرًا للمعرفة اليقينية. إنَّ الأزمة المعرفية المعاصرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفقدان الثقة بالوحي، بل بفقدان الإيمان بإمكانية الوحي أصلاً.

الوحي يقدم للإنسان حقائق يقينية لا يمكن للعقل أو الحسّ أن يصلا إليها بمفردهما. وهذه الحقائق -عن الله والغيب والغايات- ضرورية للإنسان، ليفهم وجوده وموقعه في هذا الكون. فمن دون هذه الحقائق، يبقى الإنسان تائهًا في متاهات الفلسفات المتضاربة، لا يصل إلى يقين.

ح-استعادة الثقة بالعلم التجريبي في إطاره الصحيح

إنَّ استعادة الثقة بإمكان المعرفة تعني أيضًا استعادة الثقة بالعلم التجريبي، ولكن مع تحديد مجاله وحدوده. فالعلم التجريبي قادر على كشف سُنن الله في الكون، وهو أداة ضرورية لعمارة الأرض. لكنَّه لا يستطيع -بطبيعته- أن يجيب عن أسئلة المعنى والغاية. فالأزمة المعاصرة لم تأتِ من العلم التجريبي ذاته، بل من تحويله من «منهج» للمعرفة في مجاله، إلى «المذهب المعرفي الوحيد» الذي يحصر المعرفة في المحسوس وينكر ما سواه. إنَّ استعادة الثقة بالعلم تعني إعادته إلى مجاله الصحيح، والاعتراف بمحدوديَّته.

ط- نحو أفق معرفي بديل، ملامح الطريق

إنَّ إعادة تأسيس مفهوم الحقيقة هو الخطوة الأولى والرئيسة في بناء أفق معرفي بديل. هذا الأفق البديل، الذي يستلهم أسسه من النموذج المعرفي الإسلامي، يقوم على:

- الإيمان بوجود حقيقة موضوعية واحدة، مصدرها الله الحقّ.
- الاعتراف بتعدّد طرق الوصول إلى هذه الحقيقة: الوحي، والعقل، والحسّ.
- الاعتراف بقصور الفهم البشري، دون إنكار إمكانية المعرفة.
- التمييز بين مراتب المعرفة: من اليقين، ثمّ الظنّ، ثمّ الشكّ.
- استعادة الثقة بالعقل، دون تأليهه.
- استعادة الثقة بالوحي بوصفه مصدرًا للحقائق الكبرى.
- استعادة الثقة بالعلم التجريبي في إطاره الصحيح.

٢- إعادة الاعتبار للبُعد الخُلُقي -ربط العلم بالحكمة، وربط القوَّة بالمسؤولية-:

بعد الحديث عن ضرورة إعادة تأسيس مفهوم الحقيقة، نصل إلى عنصر آخر لا يقلّ أهمية في بناء الأفق المعرفي البديل، وهو إعادة الاعتبار للبُعد الخُلُقي في المعرفة. فالأزمة المعرفية

المعاصرة ليســت مجرَّد أزمة فقدان للحقيقة، بل هي أيضًا أزمة فصل بين ما يعرفه الإنســان وما يفعله، وبين ما يســتطيعه وما ينبغي له. لقد تراكمــت المعرفة والقوَّة في أيدي البشرية المعاصرة بشــكل غير مســبوق، لكن من دون حكمة توجِّه هذه المعرفة، ومن دون مسؤولية خُلُقية تضبط هذه القوَّة. والنتيجة: معرفة تنتج الدمار إلى جانب البناء، وقوَّة تهدِّد وجود الإنسان ذاته.

إنَّ أي مشروع للخروج من الأزمة لا بدَّ أن يعيد ربط العلم بالحكمة، والقوَّة بالمسؤولية. وهذا الربط ليس مجرَّد إضافة شكلية لملحق خُلُقي في نهاية كلّ بحث علمي، بل هو إعادة بناء للمعرفة على أُسس تجعل الأخلاق في صلبها منذ البداية.

أ-المسؤولية الخُلُقية في التصوُّر الإسلامي

يربط الإسلام بين القوَّة والمسؤولية ربطًا وثيقًا؛ فكلّ نعمة يمنحها الله للإنسان هي في الوقت نفسه أمانة ومسؤولية؛ حيث يُسأل الإنسان يوم القيامة عن علمه؛ ماذا عمل به؟ ويسأل عن قوَّته؛ فيمَ استخدمها؟

يذكِّرنا القرآن بذلك: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ [التكاثر: ٨]. فالعلم والقوَّة من أعظم النعيم. فالسؤال آتٍ لا محالة، كيف استخدمت علمك؟ وكيف استخدمت قوتك؟

وهذه المســؤولية ليســت مؤجَّلة إلى يوم القيامة فحســب، بــل هي مســؤولية دنيوية أيضًا. فالمجتمع مســؤول عن محاســبة من يسيء اســتخدام القوة والعلم، وعن وضع الضوابط التي تمنع تحوُّل المعرفة إلى أداة للشر.

ب-نحو استعادة اليقين والمعنى

خاتمة

وصلنــا إلى نهاية هذه الرحلــة الفكرية الطويلة، التي بدأناها بتشــخيص الأزمة المعرفية التي يعاني منها العالم المعاصر، ومررنا فيها على جذورها التاريخية في الفكر الغربي، منذ (ديكارت) وحتى ما بعد الحداثة، ثمَّ اســتعرضنا معالم النموذج المعرفي الإســلامي وأُســسه وخصائصه، وانتهينا إلى الآفاق البديلة التي يمكن أن تفتحها هذه الرؤية للإنســانية في محنتها الراهنة. وحان

الوقت لنلخص أهمّ النتائج التي توصلنا إليها:

النتيجة الأولى والأساس التي ينبغي التأكيد عليها، هي أنَّ الأزمة التي يعيشها العالم المعاصر، على الرغم من كلّ مظاهرها المتعددة، ليست في جوهرها أزمة معلومات أو نقص في المعرفة. فنحن نعيش في عصر انفجار المعلومات؛ حيث تتضاعف المعرفة البشرية كلّ بضع سنوات، ويمكن لأي إنسان أن يصل إلى كمّ هائل من البيانات في لحظات.

ليست المشكلة في كمِّية المعلومات المتاحة، بل في الأساس الذي تقوم عليه المعرفة، وفي الغاية التي تهدف إليها. إنَّها أزمة يقين؛ لم يعد الإنسان المعاصر واثقًا من قدرته على الوصول إلى الحقيقة، ولم يعد يمتلك معايير واضحة للتمييز بين الحقّ والباطل. وهي أزمة معنى؛ فلم يعد الإنسان يعرف لماذا يعيش، وإلى أين يسير، وما الغاية من وجوده.

هذه الأزمة المزدوجة -أزمة اليقين وأزمة المعنى- هي الثمرة المنطقية لمسار فكري طويل، تخلَّص فيه الفكر الغربي من كلّ مرجعية متعالية، وحصر المعرفة في المحسوس والمادِّي، ثمَّ انتهى إلى إنكار إمكانية المعرفة نفسها، وإلى تفكيك مفهوم الحقيقة. إنَّها أزمة أُسس قبل أن تكون أزمة نتائج.

في مقابل هذا المأزق الحضاري، يقدِّم التصوُّر الإسلامي نموذجًا معرفيًّا متكاملاً، يقوم على أسس متينة يمكنها أن تعيد للمعرفة توازنها، وللحقيقة مكانتها، وللإنسان معناه. وهذه الأُسس الثلاثة -الحقيقة الموضوعية، والتكامل بين الوحي والعقل، والتوازن بين العلم والأخلاق- تشكِّل معًا بنية معرفية متكاملة، لا تقتصر فوائدها على الجانب النظري، بل تمتد إلى بناء الإنسان والمجتمع والحضارة.

إنَّها تنتج إنسانًا متوازنًا؛ يعرف الحقيقة ولا يدَّعي امتلاكها المطلق، ويستخدم عقله ولا يؤلِّهه، ويثق بالوحي ولا يلغي به العقل، ويتعلَّم العلوم الطبيعية ولا ينسى الأخلاق، ويعمل لدنياه ولا ينسى آخرته، وينفتح على الحضارات ولا يذوب فيها.

وهي تؤسِّس لحضارة متوازنة؛ لا تطغى فيها المادَّة على الروح، ولا الفرد على المجتمع، ولا القوَّة على المسؤولية، ولا التجزئة على الوحدة، ولا التغيُّر على الثبات.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- محمد بن الفتال النيشابوري: روضة الواعظين، منشورات الرضي، قم-إيران، لا ط، لا ت.
- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣ م.
- محمد بن الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة، شرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم، ط١، ١٤١٢ ه.
- محمد بن الحسن الحر العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم، ط٢، ١٤١٤ هـ.
- محمد بن يعقوب بن الكليني: الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥، ١٣٦٣ ش.
- محمد بن علي بن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف، لا ط، ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ م.